

البناء الروحي عند الشباب



خلق الله الإنسان كائن فريد من نوعه، وقد كرمه وفضله على سائر المخلوقات الأخرى (ولقد). كَرَّمْنَا بَنَدِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيْرِ بَاتٍ وَفَطَّلَنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمْنَ خَلْقَنَا تَفْصِيلًا) (الإسراء / 70)، فالإنسان باعتباره أشرف المخلوقات وأعظمها، يتحمل في مقابل ذلك مسؤولية البناء والتعмир والإصلاح، وإقامة العدل، ونشر الخير، وتعظيم الفضائل، ومنع الرذائل؛ إنها مسؤولية الأمانة (إنما عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبْيَانُ أَنَّ يَحْمِلْنَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهُمَا وَحَمَلْنَاهُمَا إِنَّهُمْ طَالُومُونَ جَهُولاً) (الأحزاب / 72).

والإنسان كائن عجيب من حيث الخلقة والقدرة؛ فقد خلقه الله عز وجل مزدوج الطبيعة، فيه عنصر مادي طيني، وعنصر روحي سماوي، يقول الله تعالى: (إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (ص / 71-72)، ونتيجة لتركيبة الإنسان الممزوجة من عنصر الطين والروح، فإن عنصر الطين يشده إلى الأرض، وما ترمز إليه من شهوات ومذلات وغرائز وهو بحاجة إلى إشباع غرائزه وشهواته من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح.. في حين أن عنصر الروح يدفعه نحو إشباع ميوله ورغباته الروحية والمعنوية، كما يدفعه كذلك إلى الرقي في مدارج السمو الروحي، والتحليق في سماء المثل والقيم.

وقد زود الإنسان بالغرائز المادية التي تدفعه وتحثه على القيام بعمارة الأرض، وتكتير الجنس البشري، وإدارة الحياة. ولو لا هذه الغرائز لانعدم التقدم والتطور والتحضر، ولا نفرض الجنس البشري منذ قديم الزمان كما انقرضت الديناصورات منذ ملايين السنين. كما زود الإنسان بالميول والرغبات والغرائز الروحية والمعنوية كي يقوم بعبادة الله عز وجل (وما خَلَقْتُ الْجِنَّنَ وَالْإِنْسَانَ لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات / 56)، ولو ذلك لما عبد الإنسان الله عز وجل، ولما شعر بالحاجة إليه، ولما تذوق لذة محبته.

ومن الضروري خلق التوازن بين الجسم والروح، كي لا يطغى جانب على حساب آخر، إذ لو طغى الجانب المادي (الطيني) في الإنسان على الجانب الروحي فإن ذلك يهبط به إلى مستوى البهائم أو أضل سبيلاً. ولو طغى الجانب الروحي على الجانب المادي فإن ذلك سيؤدي به إلى الرهبة والتتصوف والانعزال عن الحياة، ومن ثم ترك القيام بمسؤولية عمارة الأرض، وبناء الحضارة، وإدارة الحياة، وهذا ما يؤكده لنا أن التوازن الدقيق هو المنهج الصحيح في التربية الإسلامية وبالخصوص لجيل الشباب. فلا تطغى قبضة

الطين على نفحة الروح، ولا نفحة الروح على قبضة الطين، فـ**إِنَّ عَزَّ وَجْلَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مُزِيْجًا** منهما، ويريد منه أن يعيش كذلك!

والشباب حيث القوة والعنفوان والشعور بالعجب والاقتدار أحوج ما يكونون للتوازن الدقيق بين متطلبات الجسم ولوازم الروح، لأنّ النفس أميل بطبيعتها إلى الانشاد إلى غرائزها وشهوتها المادية، فإنّ الشباب بحاجة قوية إلى مواجهة النفس، وممارسة الرياضة الروحية، وترويض الذات على سلوك طريق الحق والهدى والصلاح.

وجيل الشباب حيث يعيش صراعاً قوياً ومحتملاً يومياً بين شهواته ورغباته المادية من جانب، وميوله ورغباته الروحية والمعنوية من جانب آخر، يقع في امتحان عسير، فإنّ قدّم شهواته على مياديه وقيمته ومُثُلّه، فإنّه بذلك يكون قد اتخذ إلهه هواه، وأما أن ينتصر لمياديه وقيمه ومُثُلّه الدينية، وعندئذ يكون قد اجتاز الامتحان بنجاح!

والإسلام لا يمانع من إشباع الغرائز المادية ولكن يجب أن يكون ذلك بالحلال، وبوسائل مشروعة، وضمن حدود وضوابط الشرع، وإنّ فلا يمكن للإنسان أن يتجاوز ويتجاوز حاجاته المادية منأكل وشرب وجنس ومال.. وليس من الصحيح أن يكون الإنسان منعزلاً عن الجانب المادي في كيانه، وإنما تحدث هنا عن الانسياق وراء الشهوات، والانغماس في الملذات بطرق غير مشروعة، ومن دون حدود ولا قيود.. فهذا هو الممنوع والمحرم.

وبما أنّ الشباب هي مرحلة الهيجان واستيقاظ الغرائز لابدّ من الاهتمام بالجانب الروحي للشباب، فهم أحوج ما يكونون إلى الارتباط بالخالق عزّ وجلّ، والتقرب إليه، والتسلّم به، وبذلك يقترب الشاب أكثر وأكثر من ربّه وخالقه تبارك وتعالى.

وفي عصر طفت فيه المادية على كلّ شيء؛ وذلك بفعل الحضارة المادية والتي تركز على كلّ ما هو مادي، وتتجاهل كلّ ما هو روحي وقيمي؛ أصبح السباحة في بحر الشهوات والماديات هو شعار الفلسفة المادية الحديثة، وعنوان المدنية والتقدم والتحضر!

وقد قسمت الفلسفات المادية الحديثة المعرفة إلى طبيعية (فيزيقيا) وما وراء الطبيعة (ميتا فيزيقيا) فاعترفت بالأولى وأنكرت الثانية واعتبرتها مجرد خرافات وأساطير وتصورات ابتدعها الإنسان من وحي خياله وتفكيره؛ وهذا ما أدى إلى تقوية العلاقة بين الإنسان وعالم الطبيعة وكلّ ما هو مادي ومحسوس، والانطلاق عن عالم الروح وكلّ ما قيمي ومُثُلّي، وقد انعكس هذا سلباً على سلوك الإنسان وممارساته المادية، فالإنسان في ظل الحضارة المادية أصبح يمارس كلّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل الوصول إلى غايته وأهدافه، وإن كان ذلك على حساب الأخلاق والقيم الإنسانية.

أما فلسفة الإسلام تجاه الإنسان فهي قائمة على التوازن بين أبعاد الإنسان ومكوناته الروحية والعقلية والجسمية، وهو لا يجوز الوصول إلى الغايات والأهداف النبيلة إلا من خلال وسائل وأساليب نبيلة أيضاً.

ووحدة الخالق وتوحيده حرر الإنسان من عبودية الذات، ومن عبودية الإنسان لأخيه الإنسان، وبذلك يتحقق للإنسان الحرية الحقيقة القائمة على توحيد الله عزّ جلّ، والخضوع له، ورفض الخضوع لأيّ كان آخر.

وتعتبر العبادات الشعائرية من صلاة وصيام وحج وزكاة.. وسائل مهمة لبناء الروح، وتنمية المثل والقيم الروحية في الإنسان. كما أن لتلاؤه القرآن، والدعاء، والمناجاة الأثر الكبير في تنمية الروح وتغذيتها.

إنّ التزام الشباب بالصلة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاؤه القرآن والدعاء والابتهاج إلى الله سبحانه وتعالى هو الذي يحافظ عن شعلة الدين في نفوس الشباب، وينمي الأبعاد الروحية لديهم، مما يجعلهم أقوياء أمام ضغوط النفس، وأعباء الحياة، ومغريات الحضارة المادية الحديثة.

والتمسك بالقيم الروحية والمعنوية هو أفضل حصانة للشاب من الانهيار أمام مغريات المادة، أو

التحول إلى عبد من عبيد الشهوات، كما أنّ البناء الصلب للجوانب الروحية هو الذي يجعل الشاب قريباً من الله، محبوباً عنده، وعند الناس، فقد روي عن الرسول محمد (ص) قوله: "إنَّ أَحَبَ الْخَلَائِقِ إِلَيْهِ أَنْ يُحِبَ شَاباً يَعْمَلُ شَيْئاً بِهِ وَجْهَالَهُ" وفي طاعته، ذلك الذي يباهيه به الرحمن ملائكته، يقول: هذا عبدي حقاً". وعنده (ص) قال: "إنَّ أَنْ يُحِبَ الشَّابَ الَّذِي يَفْنِي شَيْئاً بِهِ فِي طَاعَةِ اللهِ" . وعنده (ص) قال: "ما من شاب يدع الدنيا ولهاها وأهرم شبابه في طاعة الله إلا أعطاها الله أجر اثنين وسبعين صديقاً". فإذا أردت أن تكون محبوباً عند الله قريباً منه.. فليكن شبابك وحياتك كلها الله عز وجل وفي طاعته وعبادته. ▶

المصدر: كتاب الشباب.. هموم الحاضر وتطلعات المستقبل